رؤوسكم جميعه لُحصى. فلا تخافوا فانكم افضل من عصافير كثيرة...»

ثم ردّ الكتاب الى مكانه مفتوحاً ، ووقف هنيهةً ، حائرًا ، جامد النظر ، مفكرًا بمعاني تلك الآية ، وبما دفع بدور الى التأمل فيها ، وقد تجمهرت في رأسه افكار ، وجالت في صدره عواطف ، وسارت في مخيلته اشباح لم يبددها سوى صوت بدور تصيح اباها. فسألها اين كانت ؟ فقالت:

— اغتنمت فرصة نوم والدتي ، فذهبت لحضور قدّاس الخوري يوسف.

ثم اقبلت على الامير ورفيقه تصبّحهما فردّا عليها الصباح ، وقد بهت الامير لتلك الطمأنينة تجول في مقلتيها بعد ان فارقهما الجمود ، وعاد شيء من الحياة الى خدّيها . فتعجب وسرّ بهذا الانقلاب.

* * *

رجع الخوري يوسف بعد الظهر لعيادة الست سعدى ، فرآها مطمئنة الظاهر ، ساكنة الألم ، تتحادث مع الضيفين ببشاشة وارتياح . فجسّ نبضها ، ثم رشّها بشيء من الماء المقدّس كان يحمله في قنينة صغيرة لا تفارق جُبّه. وبعد ان استراح قليلًا ، نهض كأنه تذكّر شيئاً ، واجال يده بسرعة في جيوبه جميعها ثم اخرج قطعةً من قماش بُني عليها صورة السيدة العذراء ، فناولها برقبة الامير بشير داعياً له بالتوفيق في كل مآتيه ، سائلًا السيدة ان تحرسه في جميع المخاطر والمعارك . فقبّل الامير يده شاكرًا ، واجاب بانه يتكل على الله وعلى دعاء الخوري في كلّ اعماله.

وبينا الجميع يتبادلون ارق العبارات ، واخلص العواطف ، دخل فرحات فجأةً فقال :

— يا سيدي ، رأيت فارساً يصعد الوادي بسرعة ، ووجهته القصر . وكأنه من رجالنا في دير القمر . فانتبه الجميع صامتين ، وقال الامير :

— لا اراه الّا رسولًا من اخي حسن يعلمنا بزحف العدوّ ويطلب حضورنا. انتظره حتى يصل وادخل به عاجلًا.

وما هي دقائق حتى دخل الفارس . فقبل يدَ مولاه ، وسلّم على الحاضرين وقال :

— يقول لك سيدي الامير حسن ان الامراء اللمعيين استدعوا الى المتن الامير حسيناً واخاه الامير سعد الدين ، فقدما عليهم برجالهما . وتجمهر الجميع في سهل البقاع ، وهم اليوم نازلون بارض جديتا ولا يبعد ان يزحفوا علينا قريباً . فما العمل ؟ وما هي ارادة سعادتكم ؟

ولم يكن اتحاد الامراء اللمعيين بابناء الامير يوسف منتظراً بهذه السرعة ، فبهت الجميع للخبر . وعاود الست سعدى الاصفرار ، وبدت ظواهر الايجاس على بدور . اما الامير فاطرق قليلاً ثم قال :

— قل لحسن ان يرسل حالاً الى حمّانا الامير حيدر ملحم مع المعلّم نقولا ليستميلا المتنيين بالوعد او بالوعيد . ثم يجهز مائتي رجل فيسيّرهم بقيادة الامير حيدر احمد على قلعة قبّ الياس . ثم يسير هو بباقي رجالنا الى البقاع . فاوافيهم انا برجال الامير جهجاه غداً صباحاً الى نبع الباروك .

فحنى الرسول رأسه ، وقبل يد مولاه ، وعاد مسرعاً من حيث أتى .

اما الامير جهجاه فاستدعى ديباً وغرّا وامرهما بالمناداة في رجاله ، ووجوب الاستعداد للسفر قبل الصباح . بينما كان الامير بشير يطمئن الست سعدى وبدوراً الى نتيجة ذلك الخبر ، مؤملاً ان المعركة تسفر عن ظفر مبين لما يعهده في رجاله من الشجاعة والصبر ، ولما يؤمله من وصول نجدة الجزّار في القريب العاجل وهي لا تقلّ عن الف رجل .

غير ان للقلب شعوراً لا تقوى القياسات العقلية على اقناعه . فلم تطمئن الست سعدى الى شيء من ذلك ، ولكنها اظهرت رباطة جأش وتكلّفت الابتسام ، فجارتها بدور في تلك المظاهر .

وعند سحر اليوم الثاني غصّت كنيسة الضيعة الصغيرة بالاميرين ورجالهما . وقد اقبلوا مدجّجين بالسلاح ، معدّين العُدد ، ليتزوّدوا معونة السيدة قبل السفر . فدخلوا دروزاً ونصارى يسمعون قدّاس الخوري يوسف ، ويقبلون بركته ودعاءه . وكانت بدور وراء الجميع مضطربة غرقى في تأملاتها ، ترفع نظرها الى ابيها بين الفينة والفينة وتودّ لو كان بامكانه عدم الذهاب الى تلك المعركة . ثم تعود فتجتهد عبثاً باثارة عواطف الطمأنينة . ولما انتهت الذبيحة الالهية

خرجوا الى الساحة وكلهم يدهن جبينه بالماء المقدس، ثم يحتفر بين اظافره قليلاً من كلس الكنيسة فيضعه في عمامته.

وقبل الرحيل عرّج الاميران والشيخ سلوم وفرحات مع الخوري يوسف على قصر بعذران فودّعوا الست سعدى التي لم تكن تتمالك جفونها ان تطرف، ولا لونها ان يصفر. ولكنها تجلّدت اذ رأت ابنتها تتجلّد امامها. حتى اذا خرج الراحلون استسلمت الاثنتان للحزن واجهشتا في البكاء.

* * *

كانت منخفضات البادوك ومرتفعاته تموج بالرجال، وتتجاوب اصداؤها حاملة صهيل الخيول، وضجيج اهازيج الحرب، حين اطلّ الامير بشير. فعلا الهتاف، ولمعت السيوف، وأشرعت الرماح، وتلاعبت الحراب فألّفت نصالها دوائر برّاقة تحت اشعة الشمس الصافية. ولم يكد يصل حتى سكنت الحركات، وخفتت الاصوات، واصطفّ الجميع حوله حلقات حلقات، وعيونهم شاخصة الى وجهه، وآذانهم مرهفة لسماع صوته. فحيّاهم متمنياً لهم خير صباح، وخير نجاح في تلك المعركة. ثم كلّمهم ببطء وقوة وصوّر امامهم الظفر، فأثار في صدورهم الحماسة والجرأة. واذ عرف ان الهوس بلغ منهم اقصى الدرجات، شاء ان يدفعهم الى الهجوم، فانشد على مسامعهم بلفظ فخم، ونبرة حادّة، قصيدةً الف انشادها في معاركه المتعددة، والفوا سماعها من فيه حتى حفظوها، واستقرّت ابياتها في مخيلاتهم فاسكرتهم وكانت لهم بمثابة التعاويذ الدافعة الى الفوز والانتصار. قال، وهم يردّدون بعده كل بيت بمفرده:

هذا الرشاق، امام السادة النجبِ ... احبُّ لي من عناق الغيد في الحُجبِ!
وشرب كأس المنايا، في عجاج وغىً، ... الـذُّ لي من كؤوس العيش بالهربِ!
مـا همتي بجفون الغيـد ذابلةً، ... بل همتي بشؤون الذبّـل اليلبِ
وليس للمرء عزٌّ في مراتبـه، ... ان لم يرَ ظما الهنـدية القُضُبِ
عاهدت بيض الظبى أني اجرّعهـا ... مناهـلاً من دم الاعنـاق واللبَبِ
اني امرؤ لستمن قوم، اذا اقتتلوا، ... رأوا الهزيمة منجـاةً من العطبِ
قومي ذوو الشرف السامي، قريش، وقد ... نسبت من آل مخزوم؛ فيا نسبي!

سموت «بالحارث» المقدام ، نعمَ فتىً ! و« مالك » ، ثم «سعد » ، خير منتسبِ
و « قاسم » و« شهاب » طاب مجدهم . فسائلِ الحُرب عن جدّي النبي ، وابي !
قومٌ حلا لهم المعروف في ، سلمٍ ، والصدق في كَلِم ، والفتك في حرب
نعم الصدور ، اذا حلّوا الصدور ، وهم أُسد العجاج ، واهـل المنزل الرحب
ما حـلّ عزّهم المشدودَ موتُهم تحت الرمـاح العوالي عن علا الرتبِ
سلي الرماح ، اذا لاعبتها بيـدي ، كم قسورٍ عفّرت خدّيه في التـرب !
وسائلي البيض في كفي ، وكم هتكت فروج ليثٍ مجـدر الدلص محتجبِ !
بني شهاب لكم مني فتى أسدٌ يرى رشاق القنـا بُرءاً من العطبِ
بني شهاب لكم مني فتى اسدٌ يرى صليل الظبى ضرباً من الطرب
بني شهاب لكم مني فتى اسدٌ يرى قراع العدى نوعـاً من اللعبِ
بني شهاب لكم مني فتى اسدٌ يرى ضرام الوغى برداً لذي لهبِ
بني شهاب لكم مني فتى اسدٌ يرى شراب الدما اشهى من الحببِ
بني شهاب لكم مني فتى اسدٌ يغني الكتائب بين الكرّ والطلبِ
وان لي منكم أُسداً ، اذا حملوا ، خلت الجبال انثنت كرّاً على الهضبِ
من كل اروع تحت الـدرع تحسبه بدراً تقمّص في ثوب من السحبِ
ان هزّ في مفرق الاعداء اسمره تفرّقوا ، وغدوا بالـذلّ والرعبِ
ويل لاعدائنـا ، ان قال قائلنـا هذي العداة ! فجدّوا يا ذوي الحسب !
تلقى الخوارج من آل الشهاب كما تلقى العفاريتُ رجماً من لظى الشهبِ
فجاهدوا يا بني الاعمام ، ان لكم عزّاً تسامى على الاعجام والعربِ
تمسكوا بحبـال الله ، واعتصموا ، ومن يكن واثقاً بالله لم يخبِ ! [1]

* * *

١) هذه القصيدة للامير عامر ابن الامير قيس الشهابي الاذرعي حاكم حوران بعد ابيه (٨٦٧ – ٨٩٣م) انشدها اذ كان يحارب الترامطة ، فهيّج بها الحماسة في صدور رجاله وكانوا خمسة عشر الفاً فقاتلوا خمسين الفاً من الاعداء . وقد روى التاريخ ان الامير بشير كان ينشدها في حروبه .

الفصل التاسع

مصاب جديد

« حضرة العزيز غانم حرسه السيدة

« لا تخافوا ممن يقتل الجسد ولا يستطيع ان يقتل النفس بل خافوا ممن يقدر ان يُهلك النفس والجسد في جهنم . أليس عصفوران يُباعان بفلس ومع ذلك فواحد منهما لا يسقط على الارض بدون ابيكم . وانتم فان شعر رؤوسكم جميعه محصىً . فلا تخافوا فانكم افضل من عصافير كثيرة »

« نعم ، ايها العزيز ، لا يسقط عصفور على الارض بدون ارادة ابينا السماوي ! ولولا هذا الايمان ، ولولا هذه الثقة بالعناية الالهية ، لما قرأتَ لي هذه السطور ، بل لما سمعت عني سوى خبر انتحاري . لأني احتملت ما ليس للانسان الفرد طاقة باحتماله ، وصبرت على مكاره تعجز القوة البشرية وحدها عن الصبر عليها .

« ابي قتيل ، يا غانم ، وامي مريضة ، وانت شريد ، ورجالنا مبدّدون ، واموالنا مهملة . ويُطلب مني الصبر على ذلك . عجيبة حكمتك يا ربّ ! ولكن ليس لي اعتراض عليها ! ولست اخاف ممن قتل الجسد ، بعد ان شاءت رأفتك ان يتزوّد القتيل بالاسرار الالهية ، فيخلص نفسه !

« لم اكتب هذه السطور شاكيةً ولا متذمّرة ، بل ضاق صدري عن عظم حزني في ساعة ضعف ، فاحببت ان تشاطرني اياه ، فتخفف بذلك عذابي . وجفّت عيناي حرقةً وتلهُّفاً ، فأحببت ان استعين بدموعك ، فتعوّض عن تقصيري . ثم شعرت بعذوبة التعزية الالهية ، فاحببت ان تجعلها لي وافرة بصلواتك .

«فاغفر لي هذه الثورة ، ودم سنداً لمن لم يبقَ لها سندٌ سواك .

بدور الحرقوش

عن قصر بعذران في ٢٧ اذار ١٧٩٦»

* * *

لم ينهِ غانم قراءة المكتوب حتى دير به فتلمس ديوانه فانطرح عليه ، وانخلت اصابعه عن الورقة فسقطت في ارض الغرفة . وبعد فترة جحظت فيها عيناه ، وانضبطت انفاسه ، حنى رأسه وتفجرت دموعه فجأة ، فاخذ ينشج نشيج الطفل . ودموع فرحات تجيب دموعه فتعزيه ، وتزيد حزنه في وقت واحد .

ثم تجلد والتفت الى فرحات ، فكفكف هذا عبراته ، واخذ يقص عليه بتهدُّج وامىً تفاصيل مقتل الامير جهجاه . وغانم يحدق اليه وفي عينيه اماثر اللوعة ، وعلى وجهه اقصى مظاهر الحزن .

اخبره فرحات كيف صاروا من قصر بعذران الى مفاجأة العدو ، وكيف استقبلهم رجال الحزب في نبع الباروك . وكيف نشب القتال شديداً في قلعة قبّ الياس ، وكان قد قدم اليها الامير حسين بالف نفر فطالت المعركة واسفرت عن عدة قتلى منهم الشيخ نمر النكدي . وانه لولا رجال الامير حيدر احمد لدارت الدوائر على جيش الامير .

فقاطعه غانم متأثراً :

— وهذا اللعين الجزّار ، الم يُرسل رجاله لنجدة الامير ؟

— بلى ولكن عسكره وصل متأخراً فحلّ في نبع الباروك . وفي اليوم الثاني نهض بهم اميرنا الى ارض المغيثة فنزل في برارج . وارسل رجاله تنقل اخبار وصول العسكر من قرية الى قرية . فسالقوا الرعب في قلوب السكان ، حتى اخذوا يتباعدون عن ابناء الامير يوسف . وضعف حزب هؤلاء . فلم يروا من نجاة سوى الفرار ، ففروا الى نواحي طرابلس .

اما اميرنا فلم يكن ليرضى بهذا النصر البسيط بعد ان اعدَّ تلك المعدات . فما كان منه الّا ان قام في طلبهم جاداً حتى هبط وطا الجوز في بلاد كسروان ، ومعه المرحوم الامير جهجاه ، والشيخ بشير جنبلاط ، والمشايخ العماديّة . ولكنه لم يرَ للاعداء من أثر ، ولم يشاهد من رجال حزبهم الّا بعض المشايخ الدحادحة وكانوا قد انفصلوا عنهم والتجأوا الى الامير طالبين عفوه . فعفا عنهم ، واكرمهم واقامهم كتبة عنده وعند اخيه الامير حسن . واحيى تلك الليلة مع الامير

جهجاه والشيخ بشير يتباحثون في كيفية العمل لإدراك جيش العدوّ. وكانوا قد استبقوني قريباً منهما لأمر يحصل فيحتاج الامير الى خدمتي . فسمعتهم يقررون المسير الى جسر المعاملتين والوقوف عنده ، ثم اذاعة الخبر بان الجزار لم يأذن للامير بتجاوز تلك النقطة الى ايالة طرابلس . وكان القصد من ذلك ان يغترّ ابنا الامير يوسف بهذا الخبر ، فيظلّا مع رجالهما مطمئنين في البترون ، فيدهمهم العسكر ليلًا .

وهكذا كان ! فأرسل الامير من المعاملتين ، في اول الليل ، اخاه الامير حسن مع الامير حيدر احمد والشيخ بشير في عدد من العسكر . الّا ان الاقدار عاكستنا فشلنا ، وكان في عمر الاميرين فسحة ، فهربا ملتجئين الى فاضل آغا رعد متسلم طرابلس . فانتقم الامير حسن ورجاله من هذه المعاكسة بنهب البترون . اما السبب في ذاك الفشل فكان الشيخ اسعد النكدي الذي عرف بقيام عسكرنا ، فسبقه الى البترون ونبه الاميرين فهربا برجالهما .

فنظر غانم نظرة أسف وتحسر . اما فرحات فتابع بصوت مطمئن :

— ولكن الامير لم يتراجع امام هذا الفشل بل اصدر امره الى اخيه ان يعاود السير وراء الفارين حتى يدركهم . فسار الامير حسن في عسكر الجزار الى زغرتا ليحاصر طرابلس . وصعد الامير في عسكره الخاصّ الى اهدن . وظلّت الحال مدة على هذا الشكل حتى لم يرَ الامير حلًا للامر ، واستبطأ الجزار نتيجة تلك المطاردات . فتراجع العسكر وعاد اميرنا مع المرحوم الامير جهجاه الى دير القمر ، بعد ان ابقى اخاه في جبيل مستعدًا لكل ما يحدث من الطوارئ .

— وابنا الامير يوسف ؟

— سارا من طرابلس الى الزاوية مع من بقي معهما من الرجال ، ونزلا في راس كيفا . وهناك حصل انشقاق جديد في عسكرهما ، فخذلهما الامير قعدان والامير سلمان والشيخ حسن جنبلاط مع رجال حزبهم ، ورجعوا جميعاً الى البلاد تائبين ، واقاموا في بسكنتا ريثما يرضى عنهم الامير . فتوسط امرهم الشيخ بشير فعفا اميرنا عنهم .

وبعد حملة جديدة قام بها الامير حسن على بلاد الشمال ، هرب الاميران من راس كيفا الى بلاد عكار فعاد الامير الى جبيل . وقد غاظت تلك الاعمال الامير بشير فضبط ارزاق الاعداء جميعها ، وهدم مساكن رجالهم ، وجمع اموالهم ، فارسل منها قسماً وافراً الى الجزار ، وتصرّف بالباقي .

ولكن حدث بعد ذلك امر لم يكن في الحسبان . وهو ان خليل باشا والي طرابلس اراد ان يتشبه بالجزار . فانهم على احد عدوّينا ، الامير سليم ، بولاية بلاد جبيل . ولما احتج هذا مظهراً قوة الامير حسن ، ارسل معه الوالي عدداً من عسكره . وكذلك قدم لنجدته من عكار محمد المرعب برجاله ، ومن الضنيّة الشيخ عباس الرعد . فبلغ عسكره نحو الستة آلاف .

فلما بلغ الخبر اميرنا اصدر امراً بالنفير العام . فلم يمضِ القليل حتى اجتمعت رجالنا ، فسار بهم الأمير حسن والامير جهجاه الى ارض الفرطوش ، فالتقيا برجال الامير سليم . وانتشبت معركة هائلة قُتل فيها ستون نفراً من الاعداء . ولم يسلم الباقون الّا بالهرب الى طرابلس . فارسل حينذاك الامير بشير كتاباً الى خليل باشا يعرض له واقعة الحال ، شارحاً ان الجزّار غضبان على ابني الامير يوسف ، وانهما لا قدرة لهما على مقاومة الجزّار ، ملتمساً منه ان لا يقبلهما عنده . ثم اوقف العسكر منتظراً الجواب .

— وماذا كان جواب خليل باشا ؟

— لم يجاوب . بل جيّش عسكراً جديداً وارسله مع الاميرين للانتقام من الامير حسن . ولكن نتيجة هذه المعركة لم تكن بافضل من نتائج المعارك السابقة . فانهزم الاعداء هزيمة معيبة . وعلى اثر ذلك بلغ الغيظ من خليل باشا اشدّه فارسل يطلب معاونة والده عبدالله باشا والي دمشق . فاجابه الى طلبه ، وكان المتلا اسمعيل في خدمته اذ ذاك . فارسله في عسكر جرار الى البقاع حيث التقى برجال الاميرين فالّفوا جيشاً عظيماً .

وكانت اخبار هذا الجيش تصل مطّردة الى معسكرنا ، ويبالغ فيها الراوون . فمنهم من يقول خمسة آلاف ، ومنهم من يقول سبعة ، ومنهم من يصل بالعدد الى عشرة آلاف . حتى كادت الخشية تتملك قلوب رجالنا ، وكاد

القوّاد يهابون السير الى ملتقى هذا الجيش ، لو لم يتدارك الامر المرحوم الامير جهجاه — واحسرتي عليه ! — فيخطب في الجمع منشطاً ومشجعاً ؛ حتى دبت الحماسة في القلوب ، والقى الجيش زمام القيادة بين يديه ، فنهض بنفسه ، وركب متقدماً العسكر الى البقاع مقرّ العدو . وهناك كانت « حركة » مندرة المشؤومة .

وهنا توقّف المحدّث قليلاً ليمسح عينيه ، ويسكن صدره الجاش ، ويريح صوته المتهدّج . وكأنه اشفق على غانم من طول الانتظار ، فتابع :

لا شك انك سمعت بمندرة . هي ارض عند قب الياس زحف اليها عسكر المنلا اسماعيل من المرج حيث كان مخيّماً . فالتقاه فيها عسكر الامير جهجاه الذي كان سائراً من ارض المغيثة . وقد شاء القدر ان تسقى تلك الارض باغلى دمائنا . فشبت فيها تلك المعركة الهائلة . وكان الامير جهجاه ، رحمه الله ، اراد ان يشجع الرجال باعماله كما شجعهم باقواله ، فجعل يحمل على الصفوف الحملات الصادقة ، وسيفه يتنقّل على الجماجم فتتساقط ، ويهوي على الاكتاف فتتزايل ، ويضرب الآباط فيلمع من حنايا الضلوع . حتى خاف عليه الجيش من عاقبة تلك الجرأة ، وعبثاً حاول من كانوا يحمون ظهره ، وانا في جملتهم ، ان يردّوه عن تلك المغامرات . فلم يكن ليدعوي ، ولا ليرتد ، بل كان يصيح باعلى صوته كلمات حفظها الجيش وطيّروها بالحرف وهي : « يجب ان نهزمهم قبل مغيب الشمس ! »

وهكذا كان فهزمناهم ! ولكن ليتنا لم نفعل ! فلربما كنا حفظنا حياة قائدنا !

ثم التفت الى غانم فرآه ضابطاً انفاسه ، تحوم الدمعة حول جفونه فيردّها مرغمة ، وتعلو الزفرة في صدره فيعيدها آنة ، وهو يحدّق الى مخاطبه منتظراً تفاصيل المصيبة ، فتابع :

(لها بقية)